

من التراث الحديث

مُصلحاً اجتماعياً

محمد راتب الحلاوي



لمحة سريعة عن حياته :

في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تترنح تحت ضغوط الأخطار الخارجية المتمثلة في مطامع الدول الأوروبية ، وضغوط الأخطار الخارجية المتمثلة في مطامع الدول الأوروبية ، وضغوط الأحداث الداخلية الناجمة عن انتشار الوعي القومي لدى القوميات الكثيرة التي كانت تنضوي تحت لوائها ، وكذلك نتيجة انتشار الجهل ، والتسلط ، وتفشي الرشوة ، وسوء الإدارة ، وسوى ذلك من السيئات ، في تلك الفترة الحرجة من عمر الدولة العثمانية ، وفي عام ١٨٥٥* ولد في حمص لأسرة عريقة في النسب السيد عبد الحميد الزهراوي (١) وفي مسقط رأسه تعلم العربية ، ثم التركية ، ثم تتلمذ على علماء حمص فتعمق في الفقه وعلم التوحيد وعلوم الدين . وفي عام ١٨٩٠ سافر إلى الآستانة ، ومنها إلى مصر ، حيث أتبع له أن يتصل بالكثير من العلماء والأدباء . ثم عاد إلى حمص والبلاد يومئذ رهينة الحكم الحميدي

المستبد ، الذي كان يعتمد على الارهاب والبطش والجوايس ، والذي كان يعد على الناس أنفاسهم ، وحركاتهم وسكناتهم ، وصار الناس يومها « يخشون من الجدران أن تنم عليهم » (٢) ، ولكن نفس الزهراوي الأبية وتحسسه بهوم قومه ووطنه ، دفعه للمساهمة في مقاومة الاستبداد والظلم بالوسائل المتاحة . فأصدر في حمص جريدته السرية (المنير) التي كان يطبعها على الجلاتين ويوزعها على أصدقائه ومعارفه وبقية المواطنين ، مهاجماً فيها جور الحكم الاستبدادي الفاشم وفساده ويحاول أن يوقظ الشعور القومي (٣) وفي عام ١٨٩٥ غادر حمص إلى الآستانة بقصد التجارة ، وهناك اتصل ببعض الشخصيات السياسية والعلمية والأدبية ، مما دفعه إلى طلب المزيد من المعرفة . فأخذ يرتاد المكتبات العامة ، ويطلع على ما فيها من الكتب ، لا سيما الكتب التي تتناول مواضيع العمران والاجتماع والتاريخ والسياسة . وفي الآستانة أسهم بإصدار جريدة « معلومات » التي كانت تصدر بالتركية ،

* تاريخ ميلاده (١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م) ذكره الشيخ أحمد النبهان والأمير مصطفى الشهابي والدكتور سامي الدهان ؛ خلافاً لما ذكره الزركلي في « الاعلام » ونقله عنه الدكتور الركابي أي عام ١٨٥٥ م . (المجلة)

والتي استمرت في الصدور ثلاث سنوات الى أن أغلقتها السلطات بعد أن ضاقت ذرعاً بانتقادات الزهراوي للأوضاع السيئة التي نتجت عن تعصب الاتحاديين ، حيث كان الزهراوي يكتب في كل عدد مقالا افتتاحياً يحلل فيه أوضاع الدولة . « وتعتبر مقالاته وثائق هامة جدا لدراسة أوضاع الدولة العثمانية في ذلك الزمان » (٥) ونظراً لمقالاته المناوئة للاتحاديين ، ولنشاطاته التي تستهدف فضح أخطائهم أوصت الحكومة بعدم إعادة انتخابه لمجلس المبعوثان ، وهذا ما كان . وبعد مضايقات كثيرة غادر الآستانة الى مصر حيث اتصل بحزب اللامركزية وانتسب اليه . ولما انعقد مؤتمر باريس العربي في حزيران عام ١٩١٣ كان الزهراوي مندوباً عن الحزب للمؤتمر . وهناك تم انتخابه رئيساً للمؤتمر ، وبعد نشر مقررات المؤتمر ، اتصلت به الحكومة العثمانية ، وعرضت عليه العضوية في مجلس الأعيان فقبل مما أثار عليه سخط المؤتمرين ، وسخط رجال العرب ، لأنه بقبوله هذا المنصب يكون قد خالف واحداً من مقررات المؤتمر يقضي بعدم قبول أي منصب حكومي ما لم تستجب الحكومة لكافة مقررات المؤتمر . الا أن الزهراوي دافع عن نفسه بأنه ما قبل هذا المنصب الا لأنه يتيح له أن يراقب الأمور عن كثب ، ويكون أقدر على خدمة قضية أمته ، وأنه ما قبل المنصب الا بعد الرجوع الى حزبه (اللامركزية) . وقد تأكد صدق نيته من مراسلاته وتأييد بعض أصدقائه (٦) . ومما يرجح صدقه كذلك أن قائمة الاتهامات التي أدين بها على يد مجلس عاليه العرفي تضمنت أنه ما قبل المنصب الا بعد التشاور مع حزب اللامركزية والذي كان قد أصبح رئيسه ، وأنه ظل على اتصال مستمر معه .

وفيها قسم يصدر بالعربية ، كان الزهراوي يتولى أمر تحريره . وكان ينتقد فيه الأحوال السيئة ، مما دفع السلطات الى وضعه تحت المراقبة ، ثم نفته الى دمشق ووضعت تحت الإقامة الجبرية . ومن دمشق صار يرسل جريدة (المقطم) المصرية ، ونشر فيها سلسلة مقالات شكلت (رسالة في الامامة وشروطها) ، وبذلك يكون الزهراوي قد أدلى بدلوه في موضوع اجتذاب علماء وكتاب تلك الفترة ، اذ ندر أن تخلف واحد منهم عن الكتابة في هذا الموضوع ، وقد أورد الزهراوي (٢٢) اثنين وعشرين بنداً تثبت أن السلطان عبدالحميد لا يصلح للخلافة ، ويجب خلعها منها . ونشر رسالة أخرى عن الطلاق أثارت عليه ثائرة المتزمتين من المشايخ ورجال الدين . ولما استطاع أن يفلت من كيدهم دبوا له مكائد أخرى ، فأثاروا ضده مشاكل تتعلق بالتصوف (٤) وبالسياسة وهما من الأمور المحرمة يومئذ ، مما أجبر الوالي على أن يرسله مخفوراً الى الآستانة ولم يخرج من السجن الذي حكم به عليه الا بعد توسط الشيخ أبي الهدى الصيادي له ، فأعيد الى حمص ، ووضع في الإقامة الجبرية من جديد ولكنه استطاع أن يهرب الى مصر عام ١٩٠٢ حيث أتيح له أن يتصل برجال الفكر فيها . واشتغل هناك بالصحافة ، حيث شارك في تحرير (المؤيد) وبقي في مصر حتى عام ١٩٠٨ حين أطاح الانقلاب بالسلطان عبدالحميد ، وتم اعلان الدستور ، والحكم النيابي ، وعاد الزهراوي الى حمص ، وانتخب نائباً في مجلس المبعوثان عن (حمص وحماه) . وفي الآستانة شارك في تأسيس حزب (الحرية والاعتدال) ، ثم حزب (الحرية والائتلاف) المناوئين لحزب الاتحاديين وجمعية الاتحاد والترقي) . وأصدر هناك جريدته الأسبوعية « الحضارة » ،

وهو يدعو للتمسك بالاعتدال حتى في
مخاصمة الخصوم » ونصح اخواننا المظاهرين
لحزبنا « حزب الحرية والائتلاف » من صحافيين
وغيرهم، أن يتخذوا الاعتدال خطاً ، ويتجنبوا
مس كرامة الأفراد الذين انتموا الى جمعية
الاتحاد ثم لم يتيسر لهم الاطلاع على
حقائق آباء هذه الجمعية ، ومدبري
أسرارها » (١٠) .

ومن الصفات البارزة عند الرجل
تمسكه بالأخلاق وتقديمه اياها على العلم
« ان محرر هذه السطور لا يعتد في الرجال
بكثرة المعارف، وانما يعتد بجودة الاخلاق » (١١)
ان أخلاق الزهراوي كانت تدفعه لأن يكون
منصفاً وعادلاً وذا عقل منفتح بعيد عن التعصب
« أنا امرؤ مخلص ، ان خالفت ، فعن نية
حسنة ، وأنصف مخالطي . وان خالفت فعن
نية حسنة ، ولا أداهن حليفي » (١٢) .

ومن صفاته البارزة طلبه المستمر للعزة،
وحته أبناء قومه على طلب المزيد منها ، وعدم
التأفف من مشقات الحصول عليها « فكما
لا يحسن التأفف من تحمل أعباء ما يسد به
الجوع مثلاً ، لا يحسن التأفف من تحمل أعباء
ما به كفالة عزة النفوس » (١٣) ويستهجـن
وقوف الاتحاديين في وجه العرب والحيولة دون
حصولهم على المزيد من العزة « وليس شيء في
نظر العاقل بأسمى من صدر رجل أتخمتـه
الأناية ، رجلاً آخر يحب أن يتغذى بقليل من
حب نفسه وقومه » (١٤) ويضيف « نحن
لا يغيظنا أحد في الدنيا يدعو قومه الى التزيد
من المجد، ولا نقبل من أحد أن يغيظه منادعوه
الى مثل ذلك » (١٥) .

ومن الصفات البارزة في فكر الزهراوي
الانفتاح على الآخرين ، وعدم التوقع ضمن
أوهام التعصب . فقد كان يعتقد أن العاقل

وفي ليلة السادس من أيار عام ١٩١٦
قدر لعبد الحميد الزهراوي أن يكون أحد
الشهداء الأبرار الذين زفتهم الأمة العربية
طلّاع نور ، ومصابيح هداية ، وقرابين مجد،
حيث أعدم في ساحة المرجة بدمشق مع شهداء
الدفعة الثانية ، ودفن في مقبرة باب الصغير (٧)
وبذلك أسدل الستار على حياة واحد من
أكثر أبناء الأمة حيوية ونشاطاً وصدقاً .

أهم ملامح فكره :

إذا كان هناك من ميزة تميز فكر هذا
الرجل فهي الحيوية ، والنشاط الذي لا يفتـر .
فهو قد بدأ كفاحه شاباً ، ولم يتوقف عن
هذا الكفاح لحظة واحدة ، وتحت كل الظروف .

ويبدو أن مهنة الصحافة التي اجتذبتـه
اليها ، والتي أحب أن يعرف بها ، قد فرضت
عليه مثل هذه الحيوية . وقد كانت الصحافة
بالنسبة اليه الوسيلة الناجعة لنشر التوعية
السياسية عند شريحة عريضة من المجتمع .
لذلك فقد لجأ اليها منذ أن كان شاباً يطبع
جريدته السرية على الجلاتين . ولم يترك قلمه
لا في اقامة ولا في سفر ، حيث كان يرسل
المقالات الى جريدته « الحضارة » والى بقية
الجرائد في الوطن ، من على ظهر السفينة أو
من أية مدينة يحل فيها (٨) .

ومن الصفات البارزة عند الزهراوي ،
والتي أحب أن يعرف بها ، الاعتدال والبعد
عن التطرف . وهو يعتبر أن البعد عن الاعتدال
خطأ فهو يقول : « الاعتدال مشرب هذه
الجريدة « الحضارة » ، لأنه الخلق الذي يهواه
صاحبها ، ويحرص على نبيله والتخلق به ،
ويدعو اليه نفسه وغيره . ونظن أنه هو الذي
يغلب عليه وعلى جريدته ، وان شذ عنه
أحياناً ، فذلك لأننا بعيدون عن العصمة
المطلقة » (٩) .

نلقي بالا ونظراً قبل كل شيء الى هذا الاختلاف فاذا تعلمنا الطب المطلوب لمعالجة قروحه أولاً وبالذات كانت لنا الفائدة المطلوبة لمداداة قروح الاختلاف الجنسي والديني من غير ما نقص « (٢٧) » ومن هنا كان من الواجب تربية المواطنين تربية سياسية تجعلهم أكثر وعياً ، وأبعد بصراً ، وأقدر على ممارسة الدور الذي يجب أن يضطلع به كل واحد منهم ، بوصفه مواطناً له حقوق ، وعليه واجبات . مما يؤدي الى قيام جماعة متحابه ، قوية ، معافاة . اذ ان السياسة التي يجب أن تناضل الجماعة في سبيلها هي التي تقوم « على دفع الأشخاص الضارين بها عن مواقع الاقتدار ، واعانة النافعين لها على بلوغ تلك المواقع » (٢٨) فاذا وصلت الجماعة (الأمة) الى درجة من الوعي السياسي ، فانها تجد في نشوء الأحزاب المتعددة نعمة لا نقمة . وكذلك فان امة تشعر بأهميتها لأنه « لا يكون زعيمها قائماً فيها بالغلبة بل بمعون وتأييد منها » (٢٩) .

وبعبارة أخرى ان الزهراوي يقصد بالتوعية السياسية (التربية السياسية) تنمية استعداد المواطنين للمشاركة الفعالة في شؤون بلادهم وأن يعرف كل فرد منهم أن له دوراً عليه أن يؤديه . فالتوعية السياسية عنده تهدف قبل كل شيء الى انشاء المواطن الصالح، المزود بعلوم عصره ، البعيد عن التعصب والأناثية والحق . اذ يجب أن تبني التربية السياسية على (محبة الناس بعضهم بعضاً بقدر الامكان ، وان كان بعضهم أجنبياً عن بعض » (٣٠) . وهو يرى أن التربية ممكنة ، ذلك أن الاستعداد الذي لدى الأمم ليس فطرياً « بل هو باذن الله وتدريبه يقبل الامتزاج ، وتجري عليه أحكام التربية لذلك فان رسالات المرسلين ، ودعوات المصلحين والمرشدين انما جاءت لتنمية هذا الاستعداد ، وتوجيهه » (٣١)

« كانت من أعظم ما احتاج اليه هؤلاء البشر في أدوار أطوارهم ، وأطوار أدوارهم . فاننا كما نرى للتألف أسباباً وآثاراً طبيعية ، نرى للتنافر أسباباً وآثاراً طبيعية أيضاً . فالإنسان مضطر بين هذه وتلك ، الى مدافعة أسباب التنافر وآثاره بين المتألفين ، والأخذ بأسباب التألف بين المتنافرين ، وهذا هو أصل السياسة » (٢٣) فالسياسة « تعلم أسباب التعاون ووسائله اذا جهلت ، وهي التي تذكر بها اذا نسيت ، وهي التي تنير طرقها اذا عميت . وهي تنمش الآمال ، وهي التي تطيب الضعف ، وتتمهد مغارس القوة » (٢٤) .

والتوعية السياسية تجعل الأفراد والجماعات أكثر نضجاً وتزودهم بالنهاج اللائق للتعامل مع الآخرين . « اني أرى للفرد ان خالف الجماعة أن يكون حسن الأدب في خلافه ، وأرى للجماعة ان خالفت جماعة أخرى أن ترى لنفسها الحكمة في مجاري الخلاف ، وتتحلى بالشجاعة في سلمها وخصومتها » (٢٥) وهذا هو بالضبط ما تتوخاه التوعية السياسية .

وبنظرة بعيدة صائبة يرى الزهراوي أن الاختلاف الديني والاختلاف الجنسي (القومي) قديمان ، ولكنهما « لم يحولا دون تعاون المختلفين فيما لهم فائدة فيه مشتركة ، كعمران المزارع ، واقامة المتاجر والمصانع ، والتوسع في الاختراع ، وتكثيف أنواع البضائع ووجدناهما لم يمنعا أن يتساكن المتخالفان في بلد واحد ، وبيت واحد » (٢٦) والاختلاف الأخطر ، والذي يمكن أن يمزق جسم المجتمع ، اذا لم يقم على أسس من الوعي والعقلانية ، وتربية الاستعدادات التي عند الفرد والجماعة ، هو الاختلاف السياسي « فاذا رأينا أحيانا أثراً فظيماً للاختلاف الديني أو الجنسي ، فاناغب التتبع والامعان نجده في الحقيقة أثراً للاختلاف السياسي ، لذلك أود ، وأرى أن

– ومن نتائج الوعي الانساني الذي ينتج عن التربية السياسية ، أن الأمة تشارك في تقرير مصيرها ، بعد أن كانت مجرد رعية • وبالوعي السياسي تستطيع الأمة تجاوز الخلافات الطارئة بين بعض جماعاتها •

– ومن نتائج هذا الوعي كذلك فسح المجال أمام العقول للانطلاق من القيود التي تكبلها « ومتى انطلقت العقول من قيودها ووجدت مضطرباً لحركتها ، ذهبت من الفكر الى أقصى ما استعدت له ، وتسربت منه في مذاهب من الرأي ، لم تكن لتهتدي اليها لولا انطلاقها من وثاقها » (٣٦) نتيجة الوعي والنضج •

وما دمننا بصدد الحديث عن التربية السياسية عند الزهراوي لا بد لنا من التعرض للكيفية التي عالج بها الزهراوي واحدة من أعقد وأخرج القضايا في ذلك الوقت ونعني بها قضية (الاتحاد) بين أقاليم الدولة العثمانية • ولقد كان الزهراوي يومئذ مع الاتحاد وكان تأييده للاتحاد ينبع – كما سنلاحظ – من أسباب سياسية وعمرانية واجتماعية أكثر مما يعتمد على أسباب وروابط دينية وهو وان كان يؤيد الاتحاد الا أنه يخضعه لشروط وتحفظات عديدة تدل على وعيه ، ونضجه فهو يهاجم الاتحاديين (جمعية الاتحاد والترقي) دون موارد ، ويتهمهم بالتعصب واتخاذ قضية الاتحاد ذريعة للتسلط ولتقديم العنصر التركي على بقية العناصر • وبعد أن يعطي الزهراوي تعريفاً للاتحاد النافع ، يرى أن للاتحادات الانسانية من حيث هي ثلاثة أسباب : الأول سائق الدين ، والثاني سائق الأسر والقسر والاضطرار ، والثالث داعي الاحتياجات المدنية والعمرانية • وبعد أن يستبعد الحديث عن السببين الأولين ،

ويبذل الزهراوي جهداً كبيراً لاقتناع المواطنين بقيمة الدستور والنظام النيابي ، حيث يعتبرهما المنهاج اللائق ، والمناسب ، لحصول الانسان على حقوقه من حيث هو انسان (٣٢) • وهو مؤمن بفائدة هذا النظام ، سواء أزال الشكوى من المصاعب التي يواجهها الجمهور أو لم تزل • والدليل على قيمة هذا المنهاج ، أنه قد أوصل الآخرين الى درجات من الرقي لم يصلوا اليها بغيره (٣٣) ويلقي الزهراوي تبعة التوعية السياسية على عاتق الكتاب والعقلاء « المثقفين » وذلك من خلال الاهتمام بثلاثة أمور : الأول عدم التستر على الأخطاء ، وعدم كتمها ، ومن كتم داءه قتله • والثاني أن يقاوموا مصدر هذه الأخطاء ، ومنبعها جهد طاقاتهم • والثالث أن يفندوا مزاعم من يريدون القاء تبعة هذه الأخطاء على طبيعة الدستور ، والحكم النيابي « (٣٤) •

النتائج التي كان يتوخاها من التربية السياسية:

– انهماك أكبر قدر من المواطنين في العمل السياسي ، ذلك أن الزهراوي ، بصفته سياسياً مطبوعاً ، قد أدرك أن النظام النيابي يفضي الى مثل هذا الانهماك ، وذلك لأن مجال الكلام يتسع ويكثر الكلام على حقوق الأفراد والجماعات ، والبلاد والأقاليم ، تنفتح أبواب للجرائد ، التي تعبر عن الجماعة التي تصدر فيها •

– ومن نتائج الوعي السياسي ، التعايش بين الجماعات والطوائف المختلفة فهو يقول « والذي يسترعي النظر في هذه الجامعات أمران : الأول أن كل واحدة لا تنافي الأخرى اذا نظفت العقول ، وصلحت التربية • أما اذا لم تصف العقول ، وتصلح التربية ، فان المنافاة تحدث وتقلق – حينئذ – نتائجها » (٣٥) •

أكثر مما تدعو اليه الشعوب والدول الأوروبية هذه الأيام وبعد أكثر من نصف قرن في قيامها بتأسيس ما يسمى بالسوق الأوروبية المشتركة، والجماعة الأوروبية . حيث لكل أمة كيانه ومقوماتها ، ولكنها تتعاون على ما به ضمان المزيد من القوة والرفاهية لشعوبها .

وبعد أن توتيت التربية السياسية أكلها ، وينتشر الوعي السياسي عندها « لن نختلف يومئذ الا متحايين ، ولا نتفق الا متواصين بالحق متواصين بالصبر . وعند التواصي بالحق والتواصي بالصبر تنتهي خطوط التربية السياسية » (٤٠) ويكون الوعي قد بلغ أوجه ومداه . ذلك أن الشعب الواعي سياسياً هو الذي يصبر على الشدائد ، دون أن يتراجع عن حقوقه قيد انملة .

الدعوة الى نبذ السلبية :

كان من أثر الارهاب والظلم والبطش الذي صاحب الحكم الحميدي بصورة خاصة ، أن ابتعد الناس عن المشاركة في الحياة العامة . وصاروا يحذرون الادلاء برأيهم في أي شأن من شؤون الأمة . وتركوا أمور السياسة لأناس تنطموا للقيام بذلك تحت حماية جواسيس السلطان ومباركتهم . الا أن الزهراوي ، بعد أن تم القضاء على الحكم المستبد وتم اعلان الدستور أراد من كل مواطن أن يمارس حقه ، ويقوم بدور فعال في الأمور العامة كما نص على ذلك الدستور . لئلا يبقى الدستور حبراً على ورق ، ولئلا يبقى مجرد اعلان نظري لا يظاهره التطبيق العملي . وهو حين كان يدعو المواطنين للمشاركة في الحياة العامة كان مؤمناً بأن من طبيعة النظام النيابي - كما مر معنا - أن يفسح المجال أمام كل مواطن للانهماك بالعمل السياسي . لذلك كانت مهمة الزهراوي محاولة ازالة الخوف المترسب في النفوس

وبعد أن يرد على من يزعم بأن المقصود بالاتحاد هو اتحاد المسلمين العثمانيين ، أو اتحاد الترك يقول : « كلامنا في مسألة الاتحاد مع الذين يقولون نحن مدنيون ، ونوضح كلامنا فنقول نحن مسلمون ولكننا لانريد اتحاداً يكون خارجه أبناء وطننا من غير المسلمين ، ونحن عثمانيون ، ولكن لا نريد اتحاداً يكون خارجه كل أبناء الوطن من غير الترك » (٣٧) .

و « تفسير هذا الكلام بغاية الصراحة ، أن الاتحاد النافع هو الذي يبقى فيه العربي ، مثلاً ، عربياً ، والرومي رومياً ، والالباني ألبانياً . ولا يسيء أحد بأحد الظن حين يريد خدمة لسانه ويسعى في ترقية أفكار قومه ، ويظهر تمنيه بأن يكثر بينهم العلماء والأدباء . . . والاتحاد اذا كان من أجل الوطن (كما يدعي الاتحاديون) فالرجل الذي يستطيع أن ينسى قومه وقوميته ، ليامنه على الوطنية الا أحقق ، فان من لا قوم له لا وطن له ، ومن ينسى أهله ، فهو ناس وطنه قبل ذلك » (٣٨)

ويعلم بغاية الصراحة بأنه لا يستطيع أن يقبل باتحاد يراد به أن يتنازل التركي - مثلاً - عن تركيته ، والعربي - مثلاً - عن عربيته لأجل خاطر الاتحاد ، فهل فهم دلالو الاتحاد (٣٩) .

ومما سبق ، وغيره كثير ، نستنتج موقف الزهراوي من هذه القضية فهو وان كان مع الرابطة والائتلاف الا أنه لم يكن على استعداد أبداً للتضحية بأمتة وقوميته على مذبح الاتحاد كما كان يدعو لذلك العنصريون من الاتحاديين . وهو ان كان مع الاتحاد فلأسباب عمرانية وحضارية ومدنية وليس لأسباب دينية أو سوى ذلك مما قد يشتم منه رائحة التعصب . وهو في دعوته هذه لا يفعل شيئاً

بهذه العبارات الشديدة اللهجة يحاول الزهراوي أن يوقظ ما تبلد من الأحاسيس ، ويستنهض ما نام من المشاعر ، ويحاول أن يزج بكل مواطن في خضم الحياة العامة ، وفي لجنة العمل السياسي . ويذكر المواطنين بأن الظلم الذي ربما يكون واقعاً على الأمة ما كان ليقع لو أن كل مواطن انبرى لمقاومته ، وخرج عن صمته ، وخرج من عزلته « ان دفاع الباطل واجب من أول الواجبات ، والتقاعد عنه اثم وخطيئة من أول الآثام والخطيئات ، واعلموا أنه لا يتنزه عن الوقوع في الخطأ فرد ولا أمة من الأمم . ولذلك لا يكون الحساب شديداً على خطأ صدر فبادر الفرد أو الأمة الى التطهر منه . وانما يشتد الحساب في الخطيئات التي يهمل الواقعون فيها أمرها وعدم المبالاة بعاقبة أمرها . ويكون الجزاء في مثل هذا التماذي شديداً » (٤٣) .

ويرجع الزهراوي بذلك ، الظلم والقهر الذي يعاني منه المواطنون ، الى سلبية هؤلاء المواطنين ، وابتعادهم عن ابتدار حقوقهم كمواطنين ، وعدم مقاومتهم لذلك القهر والظلم ، والاكتفاء بالشكوى ، وما كان للشكوى في يوم من الأيام ، أن تعيد حقاً ، أو تردع ظلماً .

« يشكو الناس كما كانوا يشتكون أمس ، ولكن ماذا تنفع الشكوى اذا لم تكن معها روح مقاومة ، تالله لو ظلت الأمم طول دهرها حليفة الشكوى مع عدم روح المقاومة لما زال عن رأسها المتغلبون ، الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، ويكرهون أن يناقشوا بما يفعلون » (٤٤) .

ومحاولة دفع الناس الى الخروج من عزلتهم وسلبيتهم . وأبدى تضجره من شعار سلبي خطير غلب على الناس يومها ، وهو شعار (لا يعنيني) فهو يقول : « تذكروا يا قوم ما أهملناه من القواعد الأساسية ، والتي لا تقوم حياة الأمم بدونها ، لقد شاعت بيننا كلمة (لا يعنيني) شيوعاً فاحشاً ، ترى منكراً من المنكرات يتفشى . . . فتذكر ذلك لعالم من علماء الدين فتسمعه يقول (لا يعنيني) وتذهب الى رؤساء الأسر والبيوتات فتجد ثمة (لا يعنيني) » (٤١) وبعد أن يبين خطر مثل هذا الشعار - الذي يبدو أنه ينتشر دائماً في أوقات الاستبداد - يحاول أن يعيد الطمأنينة الى النفوس ، وأن يستنهض الهمم ، ويذكر أبناء الأمة بأنهم يجب ألا يكونوا مجرد رعية ، بل يجب أن يعرفوا أنهم مواطنون ، والمواطن له مصلحة في وطنه ، وله دور في اختيار حكومته « ومتى كان الحاكم خاضعاً لشروط ، كان منصوباً بيد الأمة ، وليس بناصب نفسه بنفسه ، ومتى كان كل فرد من الأمة عضواً أساسياً فيها كان بالطبع شريكاً في نصب الحكومة فان حرست الحكومة الكيان ، وأقامت العدل ، في أمة من الأمم كان ثمة ربح لكل فرد من أفراد الأمة ، وان لم تفعل ذلك كان هناك خسر على كل أحد من أحادها ، وبديهي أن الأمة التي لا تتقن الحساب ولا تتوصل لدفع أسباب الخسر ، ليس لها أن تشكو غير نفسها . أما الأمم الميتة ، المستسلمة للمتغلب فانها جديرة اذا لم تر العدل أن تقول كما يقول العبد المظلوم المهان : لم يشبعني سيدي ، لم يكسني ، لم يرحمني ، لم يخفف عني التعب . ولكن ماذا تفيد العبد هذه الشكوى ، اذا كان لا يملك حيلة سواها . وما أشنعها من مهانة اذا ابتليت بمثلها أمة من الأمم » (٤٢) .

علينا اليوم هو سد كل المنافذ التي يخشى أن تعود تلك السيئة من جهتها . نعم ان الروح الذي كان سائداً في ذلك العهد هو روح الاستعباد . . . حتى لقد أصبح من أبده الأشياء أن يقول الناس أجمعون نحن عبيد السلطان ، وعبيد الحكومة ، وصار أحب الألقاب الى المقربين لقب العبد الخاص « (٤٨) ويستمر بتذكير المواطنين تلك الفظائع التي شملت كافة شرائح المجتمع « فالأفراد من العسكر كانوا يخدمون في تلك العسكرية ثماني سنين وتسع سنين في الغالب . . . وأكثرهم لا يفرحون بلباس جديد يناسب الانسان طول هذه المدة وبعضهم تأتي عليهم ظروف لا يكفون فيها ألم الجوع » (٤٩) . و « المغرمون بالمعارف مثلاً قد حيل بينهم وبين المباحث والكتب الاجتماعية والسياسية ، وحرّم عليهم اقتناء شيء من تلك الكتب تحريماً يؤيده العقاب الشديد اذا وقعت المخالفة (٥٠) » و « لا تسأل عن حالة الفلاح المسكين ، فان الاستعباد قد أناخ عليه بكلّ كلفة حتى تركه لا يستفيد من كل متاعه المتبادية الا أخشن العيش مشوباً بالذلة والمهانة » (٥١) والصناع « قد أنهكتهم تلك العسكرية التي وصفناها آنفاً حتى أصبح الفلاح الموصوف آنفاً أحسن حالا منهم » (٥٢) . والتجار بحكم صلاتهم التجارية مع الأمم الأخرى « كانوا يعرفون الفرق بين البلاد التي تتجلى فيها حقوق الانسان من حيث انه انسان ، وبين البلاد التي يقول أهلها نحن عبيد الحكومة » (٥٣) . والأموال كانت تجبى من المواطنين تحت أسماء شتى « كثير منها غير مرتبط بقانون مستمر ، ومن تلك الأسماء : الاعانات ، والقروض الجبرية . . . » (٥٤) .

بعد أن يذكر الزهراوي المواطنين بمآسي وفظائع العهد البائد والتي كانت نكبتها ما تزال تحت أضراسهم ، يهيب بهم للانخراط في

ويدرك الزهراوي أن المقاومة تعني المعاناة والمكابدة وتحمل الأعباء والتعبات الثقيلة ، لذلك فهو يهيب بالمواطنين لتحمل تبعات المقاومة لأنه « كما لا يحسن التأفف من تحمل أعباء ما يسد به الجوع مثلاً ، لا يحسن أيضاً التأفف من تحمل أعباء ما به كفالة عزة النفوس » (٤٥) ويضيف مخاطباً كل فرد من أفراد الأمة « أحب أن أذكرك بأن الانسان لا يليق به أن يقدم على عزة نفسه ونفوس قومه شيئاً ، وبديهي أن لا عزة مع الاستعباد » (٤٦) .

الدعوة للحرية ومقاومة الاستبداد :

الزهراوي رجل سياسة ، وهو سياسي ذكي ، يكره الاستبداد لأنه يخنق الفكر ، ويسد المنافذ على العمل السياسي الحر . لذلك لاغرو ان بدأ الزهراوي حياته العامة مناضلاً ضد استبداد السلطان عبدالحميد حيث لم يرهبه البطش ، ولم ترهبه الجواسيس ، بل بدأ يطبع جريدته السرية على الجلاتين ويوزعها فاضحاً فيها سيئات الحكم المستبد الفاشم في وقت كان فيه الناس يخافون من الجدران أن تنم عليهم ، فراحوا يتسابقون في الرياء ، والسعي عند نفسه من رأى أنه أجهر الناس وأفصحهم وأبلغهم في مدح ذلك الحاكم المطلق « (٤٧) أما هو فقد انبرى لمقاومة الاستعباد والاستبداد لأنه رأى فيه مذلة أمة مذلة لقومه وأمته .

وبعد أن تم القضاء على ذلك الحكم المطلق الرهيب ظلت النفوس متهيبة من الولوج في ميدان العمل العام . فكانت مهمة الزهراوي كما سبق وذكرنا استنهاض الهمم فبعد أن يذكر بفظائع العهد البائد « ان السيئة العظيمة التي هي غلبة الاستعباد ولا أقول الاستبداد قد زالت بحول الله . وأعظم ما يجب

العمل السياسي « للحصول على العزة التي يجب أن يتمتع بها كل انسان . أحب أن أذكر بأن الانسان لا يليق به أن يقدم على عزة نفسه ونفوس قومه شيئاً ، وبديهي ألا عزة مع الاستعباد » (٥٤) ويعود ليوضح لهم العزة الحقيقية ويبين لهم كيف أن الأبهة التي كان يبدو فيها بعض رجالات العهد الماضي ليست الا وهماً « فأولئك الذين كانوا يظهرهم أمام الناس بمظهر الأغزاء ، كانوا في الحقيقة يتحسرون على العزة أحياناً كثيرة ، وان علت لهم القصور والشرفات ، لأنهم كانوا لا يأمنون على النعيم الذي فتنوا به ، حتى ينتموا الى عظيم من آلات الاستعباد » (٥٥)

ويعود ليذكر بالظلم فيقول اذا كانت تلك حال الذين أتيج لهم الوصول الى ذلك العظيم من آلات الاستعباد فكيف كانت حال المواطنين العاديين الذين لا حامي لهم « لقد أصبحوا مع الاستعباد يكرهون الحياة كلما أخذتهم هزة من حب الشرف وعزة النفس » (٥٦) .

ولكن هل كان بإمكان الدستور أن يكون تلك العصا السحرية التي ما ان تحس شيئاً حتى تشفيه من عطبه . وهل استطاع النظام النيابي الذي رافق الدستور أن يغير الواقع المأساوي الذي كانت تعيشه البلاد . الحقيقة تقول ان شيئاً لم يتغير ، ولم يتحسن . وقد ظن الزهراوي في البداية أن ذلك يعود الى ثقل التركيبة التي خلفها النظام الحميدي ، وأنه لا بد من مرور زمن كاف لتعود الأمور الى نصابها « فمن كان حسب أن الدستور يعمر الدنيا ، ويصحح أخلاق الموظفين وغير الموظفين ، ويعطي قوة عظيمة أمام الأجانب ، ويشفي الاخاء الوطني من مرضه ، كل ذلك في يوم ، أو أسبوع ، أو عام ، أو عامين فانه قد ظن خطأ ، وسها في الحساب » (٥٧) .

ولكن الانتظار طال وطال بالزهراوي

وبالمواطنين دون أن يتغير شيء . بل ان الاتحاديين قد انحرفوا بالانقلاب الى دروب مظلمة من التعصب الأرعن . وبقي الظلم والاستعباد ، بل زادا . عندها رفع الزهراوي صوته من جديد مندداً بالظلم : « الذين كانوا يعلمون عبد الحميد دروس الاستبداد ، والذين كانوا يعملون بأمره كل شيء ، مما جاز ومما لم يجز ، والذين كانوا من عبيده الصفار ومن عبيد عبيده ، والذين كانوا من السعاة والوشاة له بحق الأبرياء ، والذين كانوا يتمنون أن يكونوا من مقبلي أعتابه ، وخدام أبوابه ، كل هؤلاء رأيناهم يتسنمون مقامات عالية متنوعة في هذا العهد أيضاً . رأينا الذين كانوا معروفين بالرشوة لا يزالون في مراكزهم ، والموصوفين بالجهل ما فتئوا في مواقعهم . أما العدد القليل الذين طردوا اذ ذاك فقد تبين فيما بعد أنهم لم يطردوا لأنهم جهلاء أو مرتشون ، بل كان ذلك انتقاماً منهم لبعض الأشخاص . ثم تبين أن من دخلوا حديثاً في الوظائف هم من قبيل أولئك الذين تقدموهم . كان الناس قد سئمو من موظفين مغرورين ، منفوخين بمن ينتمون اليه من بعض كبار الرجال في العاصمة . وقد رأينا عدد هؤلاء المنتمين زاد أضعافاً مضاعفة ، اذ قد فتح لهم باب جديد ، أوسع من الأبواب السابقة . وهو باب الجمعية « جمعية الاتحاد والترقي » (٥٨) . وزاد في الطين بلة انحراف بعض الذين كانوا بالامس من أشد الدعاة الى الدستور فبعض الذين كانوا يكافحون الظلم والاستعباد أيام السلطان عبد الحميد بعد أن أتيج لهم القفز الى مراكز السلطة اذا بهم « أميل الى ما كانوا يقاومونه ، وأحرص على ما كانوا يزهدون فيه وأكثر استعداداً له » (٥٩) . وان نفراً من الذين كانوا يطلبون الدستور أيام كانوا فقراء صماليك لا يؤبه لهم ، أصبحوا

يقبلوا من قائل أن يقول : « نحن لا يغيظنا أحد في الدنيا يدعو قومه الى التزيد من المجد ، ولا نقبل من أحد أن يغيظه منا دعوة الى مثل ذلك . انا لنعلم أنه يوجد في الدنيا من يغفرون لكل الشعوب التداعي الى طلاب المجد وترديد صدها الا للعرب . فعلياً أن لا نظن بسبب هؤلاء المهاويس (الاتحاديين) أن الدنيا كلها أصبحت تكره العرب » (٦٣) .

واذا كان الاتحاديون يتبرمون من معارضة الأحزاب الأخرى ويتهمونها بأنها ضد الدولة ، وضد وحدة أراضيها فان الزهراوي على النقيض من ذلك يدعو الى انشاء الأحزاب وتمدها . وهو نفسه قد شارك في تأسيس العديد من الأحزاب وانتمى الى معظم الأحزاب والمنتديات والجمعيات التي كانت معروفة (٦٤) ويرر دعوته لتعدد الأحزاب « بأن التخالف لا يزول ، ولكن له آداب . والتنازع لا يبطل ، ولكن له سنن . والحق تختلف فيه الأفكار ، ولكن التفاهم ممكن ، لأن الأفكار قابلة للتحول ، وقبول النصح » (٦٥) وبرأيه أن تعدد الأحزاب وسيلة ناجعة للوقوف أمام الاستبداد . « لا بد من الوقوف أمام منافذ الاستبداد ، ومظان الاعوجاج ، وانه اذا لم يقم بذلك بعض الأحزاب السياسية ، لسبب من الأسباب ، في زمن من الأزمان ، مست الحاجة الى غيره . فانه اذا ثبت أنه يوجد في الأمة من يريدون التغلب على كل أحد من غير أن يعترض عليهم أحد ، وكان لا يوجد الا حزب واحد موافق ، كان هناك اما الاتفاق التام على عصمة أولئك المتغلبين عن الخطأ ، والرضاء التام باستبدادهم . واما موت أوجب سكوت الأكثرين أمام تغلب الأقلين . . . ولا ينفي علائم الموت الا شهادة عيانية بقيام حزب معترض مجادل فيها ، يقف أمام الكثرة والقلة ، ولا تشبه الألقاب التي يخلعها عليه الحزب الآخر وأنصاره » (٦٦) .

يدوسون الدستور ، ويهتكون حرمانه ، لما اعتلوا بفضلهم وصاروا أغنياء . وهم لا يزالون يقولون نحن أنصار الدستور » (٦٠) وما أشبه الليلة بالبارحة . وقد راع الزهراوي سمي هؤلاء لاشغال الفتن ، واثارة القلاقل . لأنها تخلق لهم الجو المناسب للاستغلال والارهاب . فهم « لا يحبون أن تخلو البلاد من القلاقل ، ليستعينوا بها على خدع المغفلين . . . فهم كلما كثرت القلاقل ازدادوا تمكناً من الايها ، واتهام من يخشون من الرقباء والمناظرين ، وازدادوا تضليلاً للأفكار بأنه لا يجوز والحالة هذه التهجيم عليهم » (٦١) . ويندد الزهراوي بهذا الانحراف ويهدد من مغبة الاستمرار والتماذي فيه « هكذا يفعل هؤلاء ، وهكذا سيفعلون وسيظلون فاعلين ما داموا ، وكذلك سيفعل من يرث مراكزهم ، وبسبب هذا لا يرجى أن تنتهي الحروب الداخلية في هذه البلاد » (٦٢) .

فالزهراوي ضد الاستبداد أيما كان مصدره وهو قد استل قلمه ليفضح أساليب الاستبداد الرهيبة وليبين كيف أن زبانية الاستبداد لا يتورعون عن اثارة القلاقل ليتسنى لهم كم الأفواه ، وتسليط سيف الارهاب لأن التهمة التي تنتظر كل معارض هي العمل ضد الأمن وضد المصلحة العامة ، والتعاون مع العدو ودائماً هذه حجة المستبدين في كل زمان ومكان حيث يربطون بين مصالحهم الشخصية ، ومصلحة الوطن بديماغوجية كريهة .

واذا كان الزهراوي قد لاقى ما لا قاه على يد زبانية النظام الحميدي فان ما لا قاه من طغمة الاتحاديين كان أدهى وأمر فهم لم يرقهم عناد الزهراوي ودفاعه الدؤوب عن الحرية ، وعن حق كل جماعة في الاعتزاز بنفسها ولسانها وتراثها . فالاتحاديون الغائسون في مستنقع التعصب العنصري حتى آذانهم لا يسمعون أن

وهو يدعو الفئات القليلة الى عدم الجزع اذا كانت تعيش في وسط يعمه الظلم ، وينعدم فيه العدل ذلك أنه يرى ببصيرته النافذة « أن المحيط الذي لا عدل فيه ، لا ينبغي أن يجزع القليلون فيه على أنفسهم ، فان أولئك الكثيرين الذين فيه لاحقون بهم الى الذلة ثم البوار ، وبئس القرار » (٦٨) .

الدعوة الى العلم ، والاستفادة من تجارب الآخرين :

قلنا ان الزهراوي يمقت التوقع ضمن أوهام التعصب ، وكان عنده من الثقة بنفسه وقومه ما يجعله غير هياب من الانفتاح على الآخرين « ان ما عندنا من النور يكفيننا ويكفي العالم للسير على المسالك الصالحة لاجتماع الشعوب » (٦٩) ولكنه مع ذلك ليس متزمتاً في الاغترار بهذا النور كما يفعل بعض البامدين . بل انه يدعو الى أن يحتكم المرء الى عقله في كل الأمور ، دون أن تلهيه عن ذلك ضجة الشعارات المحيطة به ، ودون أن تخدعه العواطف المتأججة ، لأنها وقتية سرعان ما يزول أثرها « أما الذي يترك الباقيات الصالحات من الآثار فهو تجاوب العقول والعزائم » (٧٠) ولذلك فالزهراوي لا يعمل كثيراً على شنشنة الخطب الحماسية والمقالات النارية التي تدبجها الجرائد . انما يعقد الأمل على « غلبة المستمسكين بالعلم الصحيح على المستمسكين بعقول غيرهم » (٧١) لذلك فهو يعيب على الكثيرين « أخذهم على العمياء » أقوال سواهم دون تمحيص أو روية . .

وبالرغم من زيه الديني ومن ثقافته الدينية لا يتورع عن الدعوة الى الأخذ بعلوم الغرب والاستفادة من تجاربه . ويدعو أبناء قومه لئلا تشغلهم عداواتهم مع الأوروبيين عن الاستفادة منهم .

واذا كان الاتحاديون قد أشرعوا سيف التسلط والارهاب بحجة حماية وحدة البلاد فان الزهراوي وان كان مع الاتحاد العثماني الا أنه يرفض كما سبق وذكرنا أن يستأثر الآخرون بالسلطة والسيادة والقيادة من دون قومه العرب . بل انه لا يرضى أن تستأثر أية جماعة أياً كانت بشيء من دون بقية الجماعات وهو يرى أن المنهاج اللائق الذي يحقق ذلك هو النظام البرلماني فقد كان شديد الايمان بنجاعة هذا النظام لأنه يكفل لكل انسان من حيث هو كذلك ، وبغض النظر عن أية اختلافات ، حقوقه وكرامته وعزته وحرية ، ولا سيما حرية القول . مما يجعل الطريق مههداً لمشاركة كل فرد في شؤون أمته ووطنه .

الدعوة الى العدل :

كان من الطبيعي والمنطقي أن تقود مقاومة الزهراوي للاستبداد ، ودعوته الى الحرية . الى أن يكون داعية من دعاة العدل .

وتمشياً مع فكرة المنفتح على الانسانية ، فانه لم يكن يطلب العدل لنفسه أو لقومه فقط . بل كان يسعى لأن يشمل العدل كل الأقوام والجماعات . وكان يعتقد أن المجتمع الذي لا عدل فيه يسير الى الخراب « اي والله الى المذلة والبوار ينقلب المجتمع الذي لا عدل فيه . وهذا هو الذي يجعلنا ندخل هنا العدل مع بحث حب النفس والتعصب . فان من أحب نفسه وقومه ودينه وكل ما هو من توابع حب نفسه ، كان من البديهي أن يرجو لكل هذه الأشياء العزة وطول البقاء ومتى علم أن العزة والبقاء يرافقان العدل ، والذلة والبوار يصحبان الظلم ، كان أحب شيء اليه العدل ، وأبغض شيء اليه الظلم ، حينئذ يكون تعصبه للعدل ، وبالعدل ، ومنتجاً للعدل » (٦٧) .

تشنها أوروبا في لك الحين على الشرق ،حروباً دينية محضة • فهو يعيدها الى أسبابها الحقيقية « اللهم هل هذا كاف في تذكير الناس أن هجوم الغرب على الشرق ليس هو هجوم دين على دين ، وانما هو هجوم قوة على ضعف ،وعلم على جهل ، وغنى على فقر • فانظروا وتساءلوا لماذا أنتم ضعفاء » (٧٦) •

مع العلم أن الزهراوي قد فطن الى استغلال أوروبا للدين وكيف تموه حقيقة مطامعها بثروات الشرق وأسواقه وتغلف كل ذلك ببراقع مقيمة وتدعي حماية المسيحيين • وهو يجادل الأوروبيين بأن الخلافات التي تحدث بين الجماعات لا يمكن أن تعود الى اختلاف الدين « كيف ننسب تعدي بعض المسلمين على بعض المسيحيين الى الدين ؟ وننسى الذي يقع مثله ألف ألف مرة من تعدي المسلمين على المسلمين • لعمرك نحن أكثر انصافاً ، اذ لا ننسب ما نعرفه من أحوال هؤلاء الأوروبيين الى دينهم ، كما ينسبون أحوال بعض أفراد أو طوائف منا الى ديننا » (٧٧) •

وتأخذ الزهراوي العزة بعروبتة ، وبترائه الاسلامي السمع فيخاطب أبناء قومه مسيحيين ومسلمين : « فياليت شعري ، ألا يقوم في شرقنا المبارك ، من أبناء وطننا من المسيحيين ، من يردون دعوى هذه « الحماية » في وجوه الأوروبيين ، ويقولون لهم : ان بقاءنا في هذا الوطن منذ ثلاثة عشر قرناً دليل على أن أسلافنا لم يكونوا محتاجين الى من يحميهم • ثم يا ليت شعري ألا يقوم في هذا الشرق المبارك من المسلمين من يزيحون ما نسجته عناكب الاهمال على هذه القاعدة التي يحق لنا أن نفاخر بها كل القواعد الأساسية التي عند الأمم • ونعني بها القاعدة التي تجعل لغير المسلمين ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين » لهم ما لنا وعليهم ما علينا » (٧٨) •

« لا نقول ان أوروبا لا يأتينا منها شر ، وانما نقول قد أتانا ويأتينا مع شرها خير • فعلياً أن نعد أنفسنا بالعلم الصحيح ، والذوق السليم ، لتمييز خيرها من شرها • وعلينا اذا ذكرنا أبواب شرها ألا ننسى أبواب خيرها ، فان هذا أقرب الى ما يسمى بالانصاف » (٧٢) وهو يذكر بما استفاده الشرق من أوروبا « ومن مظاهر رقي الأمة ، انتشار المعارف والفنون الحربية • ومن ذلك انتشار الأفكار بواسطة المدارس ، والصحافة ، وتقدم الصحافة والطباعة ، وكل ذلك مقتبس من أوروبا » (٧٣) •

التنديد بالتعصب (٧٤)

كنا قد قلنا ان الزهراوي ضد كل أنواع التعصب الديني والجنسي (القومي) ، وبيننا فيما يتعلق بالاختلاف الجنسي كيف أنه كان منصفاً عادلاً لا يطلب لقومه ما لا يطلبه لسواهم • وكيف انه قرر أن من حق كل جماعة (شعب) أن تطلب المجد والرفعة والسودد ، وأن تسعى ليكثر فيها العلماء والأدباء والمفكرون • • • والذي يهمننا الآن أن نسلط الضوء على موقف الزهراوي من التعصب الديني • والزهراوي وان كان يحمل على رأسه عمامة علماء الدين الاسلامي الا أن عقله كان أوسع بكثير من أن يحده التعصب المقيت « ما أسبق الناس ، كلما حدثت حادثة • • • الى تحريك سلاسل الدين ، وما أكثر نسيان الناس للتجارب • ينسى الناس سيئات أنفسهم ، وخطيئات حكوماتهم ، ويعمدون الى ادعاء أن عدوهم لم يتهم عليهم الا لأنهم مخالفوه في الدين • • • وينسى الناس أن وطننا مؤلف من أقوام دياناتهم متخالفة ، وأنه ليس من الحكمة ، ولا من اللباقة الفرع الى النعرة الدينية » (٧٥) لذلك فهو يرفض أن تكون الحروب التي

وقد كانت حياة الزهراوي ، وعلاقاته ، وصلاته الشخصية مؤكدة صدق دعوته لنبد التعصب . ونحن نراه في كل حالاته معاضداً لكل دعوة حق كائناً من كان قائلها . بل ان ليلة استشهاده لتشهد بصدق لهجته ، أو لم تتعاق روحه الطاهرة مع روح صديقه وابن مدينته (رفيق رزق سلوم) فكان استشهادهما معاً دليلاً لا يأتيه الباطل على تجاوز الزهراوي لنصرة التعصب .

وبعد فقد قدمنا بعض آراء الشهيد عبد الحميد الزهراوي والتي بدا من خلالها داعية حرية وعدالة يتميز أكثر ما يتميز بصدق اللهجة ، وحرارة الأسلوب والبدأ على النضال والكفاح تحت كل الظروف . واذا كان (منير مشابك موسى) قد وصف الزهراوي بأنه لم يكن عميق التفكير ولم يكن يملك ثقافة عصرية فربما كان السبب الذي دفع (منير مشابك موسى) الى اطلاق مثل هذا الحكم ، كما سبق وذكرنا ، عدم مراعاة الظروف التي كتب فيها الزهراوي مقالاته فالمقالات التي اعتمد عليها (منير موسى) والتي كانت مرجعنا الأساسي في هذا الموضوع هي مقالات صحفية وليست بحوثاً علمية بمعنى بأن ما قد نحسبه سطحية في التفكير إنما نجم عن اضطرار الزهراوي للتبسط لأن مقالاته موجهة الى القارئ العادي . بل انني أرى في بساطة وسهولة أسلوب الزهراوي أثناء معالجة موضوعات سياسية واجتماعية دليلاً على تمكن الزهراوي من تلك الأفكار والموضوعات . أما القول بأن دفاع الزهراوي عن الرابطة الاسلامية و (العثمانية) كان أقوى من دفاعه

عن العروبة فهو قول أخذ على عواهنه . دون تمحيص . ذلك أن الفكرة القومية عند الزهراوي ليست خافتة الصوت ، ولم تكن ضائعة في خضم دفاع الزهراوي عن (العثمانية) بل اننا لنجد لديه من الوعي القومي ما لا يقل عن أي داعية قومي آخر ولا أعرف كيف يتهم أحد عبد الحميد الزهراوي بالتخلف في ميدان القومية وهو الذي قدم روحه ذكية على مذبحها . كل ما في الأمر أن الرجل صاحب فكرة تقول بتقديم (سائق العمران والاجتماع) على سائق الدين وسائق الجنس . ولعمري ان هذه الفكرة أقرب الى الفكر القومي منها الى الفكر الديني . هذا الى جانب موقف الزهراوي المشهود من أعمال الاتحاديين وعنصريتهم فكان يدعو لازالة فكرة العنصر المتحكم من الأفكار وليس من قاموس السياسة فحسب . ويتهم الاتحاديين بالعنصرية وبأنهم مجرد دلالين وسامسة في سوق (الاتحاد) .

وكما سبق وذكرنا فان الرابطة التي كان يدافع عنها الزهراوي ليست شيئاً أكثر مما تفعله الدول الأوروبية في التجمعات الاقليمية مع بقاء كل أمة محتفظة بكيانها ومقوماتها . وهذا ما لم يكن ليرضي الاتحاديين الذين حاولوا احتواء الزهراوي بشتى الوسائل ، الترهيب منها والترغيب . ولكن كل تلك الوسائل لم تفلح في ثنيه عن عقيدته السياسية والفكرية الأمر الذي كلفه بعد ذلك روحه حيث دفعها فداء لصدق لهجته ، وصدق دعوته ، وصدق مواقفه . ورحم الله شهيدنا الذي يكون بتقديمه روحه ودمه قد مهر أقواله وأفكاره بجلال الشهادة ، وعظمتها ، ووقارها .

محمد راتب الحلاق

الهوامش :

- ١ - تنتسب أسرة الزهراوي الى الحسن بن علي ، ويطلق على كل فرد ينتمي الى الاسر التي تنتهي للنسب الشريف لقب (السيد) .
- ٢ - د . جودة الركابي و د . جميل سلطان . الارث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي . ص ٦ . « وسنكتفي بعد الآن بذكر رقم الصفحة » .
- ٣ - المصدر السابق ، المقدمة .
- ٤ - أشار الامام محمد عبده الى هذه الحادثة في مقال له نشرته دار الهلال مع مقالات اخرى في كتاب حمل اسم (الاسلام بين العلم والمدنية) وفي الصفحة ١٥٩ . حيث ان الزهراوي اعتبر ان الصوفية ليس مما انتفع به الاسلام بل ربما تكون مما رزى به . وقد قال ذلك في وقت يتسئم فيه ابو الهندي الصياوي (وهو من هو في الاغراق والتطرف بالتصوف) منصب شيخ الاسلام .
- ٥ - منير مشابك موسى ، الفكر العربي في العصر الحديث ، ص ٢٣٨ .
- ٦ - د . عبدالكريم رافق - العرب والعثمانيون ، ص ٥٤٣ .
- ٧ - د . الركابي وزميله ، المقدمة .
- ٨ - الى جانب مقالاته الصحفية ترك الزهراوي مجموعة آثار منها : رسالة الامامة وشروطها ، رسالة في الطلاق ، رسالة في الفقه والتصوف رسالة في الحب والبغض ، كتاب خديجة أم المؤمنين - كتاب في الفقه ، رسائل في النحو والبلاغة والمنطق .
- ٩ - د . الركابي وزميله ، ص ٣٧٢ .
- ١٠ - د . الركابي وزميله ، ص ٣٧٣ .
- ١١ - المصدر السابق ، ص ٣٨٩ .
- ١٢ - المصدر السابق ، ص ١١٣ .
- ١٣ - المصدر السابق ، ص ١٢ .
- ١٤ - المصدر السابق ، ص ٢٩ .
- ١٥ - المصدر السابق ، ص ٢٩ .
- ١٦ - المصدر السابق ، ص .
- ١٧ - منير مشابك موسى ، ص ٢٣٠ .
- ١٨ - د . الركابي وزميله ، المقدمة .
- ١٩ - د . منير موسى ، ص ٢٣٠ .
- ٢٠ - د . منير مشابك موسى . الفكر العربي في العصر الحديث ، ص ٢٣٠ .
- ٢١ - الامام محمد عبده . الاسلام بين العلم والمدنية . ص ١٦٥ .
- ٢٢ - الركابي ، المقالات ، ص ٥١ .
- ٢٣ - المقالات . ص ٥٢ « الركابي » .
- ٢٤ - المقالات ، ص ٥٣ « الركابي » .
- ٢٥ - المصدر السابق ، ص ٥٤ .
- ٢٦ - المصدر السابق ، ص ٥٦ .
- ٢٧-٢٨ - د . الركابي وزميله ، ص ٥٦ .
- ٢٩ - د . الركابي وزميله ، ص ٥٧ .
- ٣٠ - الركابي وزميله ، مقدمة الكتاب .
- ٣١ - الركابي وزميله ، ص ١٠ .
- ٣٢ - الركابي وزميله ، ص ١١ .
- ٣٣ - المصدر السابق ، ص ١١ .
- ٣٤ - المصدر السابق ، ص ١١ .
- ٣٥ - د . الركابي وزميله ، ص ١٣ .
- ٣٦ - د . الركابي وزميله ، ص ٤٧١ .
- ٣٧ - المصدر السابق ، ص ١٦ .
- ٣٨ - المصدر السابق ، ص ١٧ .
- ٣٩ - المصدر السابق ، ص ١٨ .
- ٤٠ - المصدر السابق ، ص ٥٨ .
- ٤١ - المصدر السابق ، ص ٣٤٩ .
- ٤٢ - المصدر السابق ، ص ٣٤٨ .
- ٤٣ - المصدر السابق ، ص ٣٦١ .

- ٤٤- المصدر السابق ، ص ١٦٥ .
- ٤٥- المصدر السابق ، ص ١٢ .
- ٤٦- المصدر السابق ، ص ٦ .
- ٤٧- المصدر السابق ، ص ٥ .
- ٤٨- المصدر السابق ، ص ٤ .
- ٤٩- المصدر السابق ، ص ٤ .
- ٥٠- المصدر السابق ، ص ٥ .
- ٥١- المصدر السابق ، ص ٥ .
- ٥٢- المصدر السابق ، ص ٦ .
- ٥٣- المصدر السابق ، ص ٦ .
- ٥٤-٥٥- المصدر السابق ، ص ٦ .
- ٥٦- المصدر السابق ، ص ٧ .
- ٥٧- المصدر السابق ، ص ١١ .
- ٥٨- المصدر السابق ، ص ٣١٦ .
- ٥٩- المصدر السابق ، ص ٣١٦ .
- ٦٠- المصدر السابق ، ص ٣٠٨ .
- ٦١- المصدر السابق ، ص ٣١٦ .
- ٦٢- المصدر السابق ، ص ٣١٧ .
- ٦٣- المصدر السابق ، ص ٢٩ .
- ٦٤- شارك في تأسيس حزب (الحرية والاعتدال) ثم حزب (الحرية والائتلاف) كما انه كان عضوا في كثير من المنتديات والجمعيات والأحزاب « انظر كتاب دمشق في مطلع القرن العشرين » .
- ٦٥- د. الركابي وزميله ، ص ٢١٤ .
- ٦٦- المصدر السابق ، ص ١١٤ .
- ٦٧- المصدر السابق ، ص ٢٨ .
- ٦٨- المصدر السابق ، ص ٢٨ .
- ٦٩- المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .
- ٧٠- المصدر السابق ، ص ٣٣٩ .
- ٧١- المصدر السابق ، ص ٣٣٩ .
- ٧٢- المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .
- ٧٣- المصدر السابق ، ص ٢١٠ .
- ٧٤- نقصد التعصب المتطرف المعقوت الذي يؤدي الى ضيق الأفق .
- ٧٥- المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
- ٧٦- المصدر السابق ، ص ١٨٦ .
- ٧٧- المصدر السابق ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .
- ٧٨- المصدر السابق ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .



مراجع البحث :

- ١ - مقالات الشهيد عبد الحميد الزهراوي في جريدة الحضارة في سنتها الثانية والثالثة . وقد جمع هذه المقالات في كتاب يحمل اسم الارث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي « كل من الدكتور جودة الركابي والدكتور جميل سلطان » .
- ٢ - الدكتور عبد الكريم رافق - العرب والعثمانيون (١٥١٦ - ١٥١٧) .
- ٣ - الدكتور منير مشابك موسى الفكر - الغربي في العصر الحديث .
- ٤ - الدكتور توفيق برو - القومية العربية في القرن التاسع عشر .
- ٥ - أحمد أمين - زعماء الإصلاح في العصر الحديث .
- ٦ - محمد عبيد - الاسلام بين العلم والمدينة .
- ٧ - مجلة المستقبل العربي اللبنانية ، نيسان ١٩٨١ .
- ٨ - مجلة العربي الكويتية ، تشرين الأول ١٩٨٠ .